عرض لأفكار الأستاذ الدكتور حسن عيسى الحكيم
في كتابه (مدرسة الحِلَّة العلميَّة)

أ.د. يوسف كاظم جغيل الشمَّريّ
جامعة بابل/كليَّة التربية للعلوم الإنسانيَّة

A Presentation of the Ideas of Professor Dr. Hassan Issa Al-Hakim in his book (The Hilla Scientific School)

Prof. Dr. Yousef Kazim Jaghail Al-Shammari
University of Babylon/College of Education for Human Sciences

لمحة تاريخيَّة عن مدينة الحِلَّة

كانت مدينة الحِلَّة من المدن التي مُصِّرت سنة ٤٩٥هـ، على يد صدقة بن منصور ابن دبيس الأسديّ، من بني مزيد بن الديَّان، وهي المدينة التي مصَّرها أمير من إمراء العرب، من دون إذن الخليفة العبَّاسيّ وموافقته، وقد كان للمدينة قبل المزيديين أهميَّة لا يُستهان بها، إذ إنَّها كانت تسمَّى الجامعين قبل دخول المزيديِّين وانتقالهم إليها من مدينة النيل، التي سكنوها قبل الجامعين، بعدما جاءوا من الجزيرة الدبيسيَّة؛ على إثر خلاف بين أبناء الأسرة المزيديَّة حول الزعامة، واتَّخذوها مقرًّا لإمارتهم، إلَّا أنَّ التهديدات المتمثِّلة بالتسلُّط الأجنبيّ (السلجوقيّ)، الذي أصبح يهدِّد وجودهم، ومصدره بغداد، إذ كان السلطان السلجوقيّ في مقرِّه في العراق ببغداد، لذلك بحث المزيديون بديلًا عن منطقة النيل، فوجدوا من الجامعين مكانًا محصَّنًا تحصينًا طبيعيًّا يتمثَّل بنهر الفرات من جهة بغداد؛ لذلك اختارها صدقة بن منصور، ونقل الدواوين إليها، واتَّخذها مقرًّا لإمارته، وقد كان خيارًا موفَّقًا، وأهل المدينة الموجودون قبل المزيديِّين يدينون بالعقيدة الإماميَّة الاثني عشريَّة، وهي ذات المعتقدات التي يدين بها المزيديُّون من بني أسد، وبالرغم من المصاعب التي واجهها شيعة العراق في النجف وكربلاء والحِلَّة، وبغداد، وسامراء، إلَّا أنَّهم نجحوا في الصمود أمام تحدِّيات ومضايقات السلطة التي استهدفتهم بكلِّ وسائل القتل والتنكيل والضغوطات النفسيَّة، تمكَّنوا من مواجهة التحدِّي، وإثبات تمسُّكهم بحبِّهم لآل البيت عليهم السلام، وعقيدتهم بالإمام عليّ عليه السلام حبًّا وولاءً. وكان لاهتمام المزيديِّين بالجانب العلميّ، واحتضانهم للعلماء والشعراء، وتشجيعهم

بالمكافـآت والهبات والهدايـا، أن أصبحت المدينة مركز اسـتقطاب لطـلَّاب العلم من مدن مختلفة، وتوجُّهات عقديَّة متباينة. وفي القرن السـادس الهجريّ وحتَّى نهاية التاسع الهجـريّ، وصلت مدرسـتها العلميَّـة إلى أوج ازدهارها، وبرز علماء أعـلام عاملون، ابتداءً بالشيخ محمَّد بن إدريس الحِلِّيّ (ت٥٩٨هـ)، وصولًا إلى الشيخ أحمد بن فهد الحِلِّيّ (ت٨٤١هـ) في القرن التاسـع الهجريّ، وتخلَّل هذه القرون الأربعة ظهور مئات العلماء الذين أصبحوا مركز اسـتقطاب طلَّاب العلم من مدن إسلاميَّة عدَّة، وأصبحت المدينة في تلاقح فكريّ قائم على قدمٍ وساقٍ، فشُدَّ الرِّحال إليها، ورحل علماؤها إلى مدن عدَّة، حيث نشروا علومهم ونقلوها إلى مناطق ومدن مختلفة في الحجاز واليمن وبلاد الشـام، وبلاد المشرق الاسلاميّ ومدنه، التي جابوها ورحلوا إليها لنشر العلم، والتي جاء منها علماء وطلَّاب علم قاصدين مدينة الحِلَّة للتحصيل من علمائها، ومنهم مَن سكن المدينة واستقرَّ بها وانتسب إليها، وغيرهم سكنها مدَّة وقفل راجعًا محمَّلًا بعلومه المتنوِّعة التي اكتسبها وتحصَّل عليها من علماء الحِلَّة.

كتب الكثير من المهتمِّين بتاريخ المدينة وتاريخ العلوم التي نشطت فيها وازدهرت، وفي المؤلَّفات الكثيرة التي صُنِّفت، لاسيما المؤلَّفات التي تنظمُّ تحت جناح العلوم الدينيَّة، إذ كان لهـا النصيـب الأوفر من بين مؤلَّفات علماء الحِلَّة من حيـث الكمِّ والنَّوع، إلَّا أنَّ هذا لا يعني أنَّ سـائر العلوم والفنون كانت غائبة أو فقيرة في مدرسة الحِلَّة العلميَّة، بل تنوَّعت العلوم والمعارف التي اشتهر بها العلماء الحِلِّيُّون، وبرعوا فيها، والمطَّلع على نتاج علماء الحِلَّة عنده صورة واضحة عن هذا الجانب.

التعريف بالأستاذ الدكتور حسن الحكيم

كان من بين المهتمِّين بدراسة تاريخ مدينة الحِلَّة، أستاذ التاريخ الإسلاميّ، الأستاذ الدكتور حسن عيسى عليّ الحكيم، من مواليد النجف الأشرف ١٩٤١، أكمل دراسة البكالوريوس في كليَّة الآداب/ جامعة بغداد، سنة ١٩٦٦، والماجستير في الكليَّة والجامعة نفسها، بقسم التاريخ، الفرع الإسلاميّ، سنة ١٩٧٤، أما الدكتوراه فقد أكملها في القسم نفسه سنة ١٩٨٢.

شغل مناصب عدَّة، منها: معاون عميد كليَّة الفقه/ الجامعة المستنصريَّة، سنة ١٩٧٦، رئاسة قسم التاريخ بكليَّة الآداب/ جامعة الكوفة، خلال المدَّة ١٩٨٩-١٩٩٧، وترأَّس مركز دراسات الكوفة ١٩٩٧-٢٠٠٢، وتولَّى منصب عميد كليَّة الآداب/ جامعة الكوفة ١٩٩٦- ٢٠٠٢، ويبدو أنَّه تولَّى منصبَين في وقتٍ واحدٍ، عمادة كليَّة الآداب، ورئاسة مركز الدراسات في جامعة الكوفة، ثمَّ تولَّى منصب رئيس جامعة الكوفة ٢٠٠٣- ٢٠٠٦.

له مؤلَّفات كثيرة ونتاج متنوِّع، ولعلَّ أهمَّ نتاجاته الموسوعيَّة هو كتابه (المفصَّل في تاريخ النجف)، الذي وصل عدد أجزائه حتَّى الآن (٥٠ مجلَّدًا)، وتنوَّعت كتاباته في الدراسات التاريخيَّة الإسلاميَّة، وكتب عن علماء بارزين كالشيخ الطوسيّ وابن الجوزيّ، وكتب في السيرة النبويَّة، وفي الإمام عليّ عليه السلام، وكتب عن كربلاء ومدرستها، ومدرسة بغداد، ومذاهب الإسلاميِّين، والاستشراق، ناهيك عن مئات البحوث العلميَّة التي كتبت ونُشرت، وأسهم في مؤتمرات علميَّة عالميَّة، وألقى مئات المحاضرات في المراكز والمنتديات، ناهيك عن الجماعات بداخل العراق وخارجه.

لـه مؤلَّفات تناولت تاريخ المدينة، ولعلَّ من أهـمِّ المؤلَّفات التي لها علاقة مباشرة بتاريـخ المدينـة، هـو الكتـاب الذي نحـن بصدد عرضـه، والمعنـون بـ(مدرسـة الحِلَّة العلميَّـة ودورها في حركة التأصيل المعرفيّ)، الذي طُبع في مطبعة البيِّنة سـنة ٢٠٠٩م، ويتكـوَّن مـن ٤٤٠ صحيفـة، النـاشر مركز الهـدى للدراسـات الحوزويَّـة في النجف الأشرف، والـذي سـنعرض أهـمِّ الأفكار والـرؤى والمعلومـات التي اشـتمل عليها الكتاب.

عرض لأهم أفكار الدكتور حسن الحكيم في كتابه المذكور

قدَّم الدكتور حسن الحكيم لكتابه مقدِّمة تناول فيها مدينة الحِلَّة وتاريخ تمصيرها، ملمِّحًا لأهمِّ العوامل التي أسهمت في ازدهار مدرستها، وظهور عدد كبير من العلماء فيها، معرِّجًا على أبرز الأدباء الذين ولدوا فيها أو زاروها، مثل: الشاعر والأديب والعالم المشهور ابن الهباريَّة الذي ألَّف كتابًا مهمًّا، وهو (الصادح والباغم)، ثمَّ ذكر أهميَّة هذه المدرسة، التي أنعشت مدرسة النجف مرَّة أخرى بعد أن أصابها الفتور بين القرنَين الثالث والسادس الهجريَّين، مبيِّنًا باختصارٍ شديد أثر علماء الحِلَّة في مدينة النجف.

واستشهد بقصيدة للشاعر صفيِّ الدين الحِلِّيّ وهو يتحدَّث عن حصانة الحِلَّة وسورها الذي بُني من الطين، وكأنَّه طور سينين، يستدل على حصانة الحصن وقوَّته وصفته، الذي بناه صدقة بن منصور المزيديّ.

واستدلَّ بقول ابن الأثير الذي وصف فيه سيف الدولة، وتواضعه وإجارته لصغار الناس قبل كبارهم، وكيف اتَّسع جاهه، ونجح في إدارة إمارته حتَّى أصبحت داره موئلًا ومأمنًا لمن يدخلها، مهما كانت جنايته، ما دام فيها.

ووصف مجلس سيف الدولة بالمدرسة التي تضمُّ فحول الشعراء، ومن مختلف المناطق، وعلى مختلف الملل والتوجُّهات العقائديَّة.

وزصف الدكتور حسن الحكيم حدود الحِلَّة الجغرافيَّة والمناطق المحاذية لها، ووصف شكلها الذي يشبه المستطيل على شطِّ الفرات الواقع على جانبها الشرقيّ، ولها أسواق جميلة جامعة للمرافق المدنيَّة والصناعات، ومعرِّجًا على كثرة الخلق فيها، حدائق

النخل فيها متَّصلة، وهذا الوصف اقتبسه الدكتور حسن الحكيم من كتاب رحلة ابن جبير الكنانيّ، وقد أشار إلى ذلك عند تمهيده للدخول إلى النصِّ.

لم يفت الدكتور حسن الحكيم التحدُّث عن الجانب الحضاريّ، إذ عرَّج على ذِكر الدلالات المهمَّة، كجسر الزوارق الذي يعدُّ معلمًا مهمًّا من معالم الحِلَّة العمرانيَّة، والرابط بين جانبَي المدينة الكبير والصغير.

تناول المؤلّف أهمَّ المناطق التي كانت ضمن مدينة الحِلَّة وحدودها، وعدَّ تلك المناطق الروافد الرئيسة التي تمدُّ الحِلَّة بالمفكِّرين، من فقهاء ومحدِّثين وأدباء، وغيرهم، وقد حافظ أغلبهم على نسبته إلى تلك المنطقة التي ولد فيها، أو انتسب إليها، مثل السورى، النيل، برس، هرقلة، المزيديَّة، مطيرآباد، قبِّين، نرس، السِّيب، الجامعين، وهذه المناطق العشرة شكَّل عدد كبير من رجالها مادَّة فكريَّة، وعلماء يُشار إليهم بالبنان، وأصبح يُطلَق عليهم على الأعمِّ الأغلب لقب الحِلِّيّ، فضلًا عن اسم منطقته التي ولِد فيها.

تناول الكتاب مجموعة من العلماء الذين أكَّد المؤلِّف أنَّهم عاصروا رائد الحركة العلميَّة في مدينة الحِلَّة، ويقصد به الشيخ محمَّد بن إدريس الحِلِّيّ المتوفَّى سنة ٥٩٨هـ، مؤيِّدًا ذلك بذِكر تواريخ وفاة أكثرهم، وقد أدرج سبعة عشر عالمًا منهم، دلالةً على وجود الحركة العلميَّة في المدينة، وأنَّ هناك أعلامًا بارزين كان لهم الفضل في دعم الحياة العلميَّة فيها، وأشار إلى محلَّة الجامعين التي كانت حاضنة لعدد من الأعلام البارزين خلال المدَّة السابقة لتمصير مدينة الحِلَّة.

كان أهمّ ما اشتمله الفصل الأوَّل من الكتاب الذي يتكوَّن من سبعة فصول، وهذه الفصول كانت عنواناتها قد صيغت واختيرت بتمعُّن عارف متفحِّص بتاريخ المدينة وبأشهر علمائها، إذ إنَّ تنقُّلاته كانت بحسب ضوابط وثوابت تدلُّ على معرفة دقيقة

بتاريخ المدينة العلميّ، فالفصل الأوَّل كان قد تدرَّج فيه بمعلومات غاية في الأهميَّة عن الحركة العلميَّة في المدينة خلال القرنَين الخامس والسادس الهجريَّين، وهما قرنان يعدَّان البدايات الفعليَّة المهمَّة للحركة الفكريَّة التي أيَّدها الأمراء المزيديُّون الذين شجَّعوا هذا الجانب، إلَّا أنَّ الواقع هو أنَّ هناك دلالات مهمَّة تؤكِّد وجود رجال علم بارزين، لهم أثرهم في المدارس النحويَّة، لاسيما الكوفيَّة منها، قبل مجيء المزيديِّين الى المنطقة، إذ إنَّ علماء مشهورين كان مسقط رأسهم قرية النيل التي تعدُّ من توابع الحِلَّة بعد تأسيسها، وكانت عاصمة المزيديِّين قبل انتقالهم إلى الجامعين.

أمَّا الفصل الثاني من الكتاب فقد عنون بـ(الشيخ ابن إدريس الحِلِّيّ رائد الحركة العلميَّة في المدرسة الحِلِّيَّة)، وألمح المؤلِّف إلى معاصرة ابن ادريس لأربعة من خلفاء بني العبَّاس، وهم كلٌّ من (المتَّقي، والمستنجد، والمستضيء، والناصر)، وأنَّ الخلافة العبَّاسيَّة كانت متحكَّم بها من التسلُّط الاجنبي المتمثِّل بالسلاجقة، وأنَّ الحملات الصليبيَّة كانت تترى على العالم الإسلاميّ من جهة بلاد الشام، وقد شكَّلت خطرًا كبيرًا، وأوضح المؤلِّف كيف أنَّ العالم الاسلامي آنذاك كان يعاني من التشرذم والانقسام والتفكُّك، وأنَّ الأجنبيّ المتسلِّط قد عبث بمقدَّرات الأمَّة، ناهيك عن المشاكل الداخليَّة التي تمثَّلت بأمراء الأطراف (شيوخ القبائل)، لاسيما في العراق عامَّة، ومدينة الحِلَّة خاصَّة، وكيف كان لهذه القبائل أن تتحكَّم بطريق الحجِّ، وربَّما سبَّبت قلقًا كبيرًا لمركز مدينة الحِلَّة، التي تمَّت مهاجمتها لمرَّات عدَّة من قِبَل هذه القبائل؛ نتيجة المشاكل التي كانت تقع مع الخلافة أحيانًا، أو مع حاكم مدينة الحِلَّة أحيانًا أخرى، وهذا الصراع ربَّما كان على النفوذ أو الحصول على المكاسب، واستمرَّت المدينة حتَّى نهاية القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ، بل وما بعدها، والضغط على المدينة يتكرَّر على مرِّ تاريخها، مستغلِّين كلَّ فراغٍ سياسيٍّ يحصل فيها، ليعيثوا بمقدَّراتها، والدخول إليها ونهبها.

ركَّـز المؤلف على موقف الشـيخ ابـن ادريس الحِلِّيّ من آراء الشـيخ الطوسيّ زعيم الطائفـة (ت٤٦٠هـ)، وكيـف ردَّ الشـيخ ابـن إدريس وناقـش آراء الشـيخ الطوسيّ الفقهيَّة، وقد تناول المؤلِّف ما ذكره الشـيخ ابن إدريس الحِلِّيّ في كتابه المشـهور (السرائر الحاوي لتحريـر الفتاوي)، وأدرج كتب ابن ادريس الأخـرى، وكان تركيزه على ثمانية منها، وهـذه المؤلَّفات أوضحها المؤلِّـف باختصار، مركِّزًا على كلِّ كتابٍ منها، لاسـيما ما يتعلَّق بالمسـائل التي أصبحت محطَّ نقاشٍ لآراء الشيخ الطوسيّ، وأشار إلى تتلمذ ابن ادريـس الحِلِّيّ على السـيِّد حمزة بن زهـرة الحلبيّ أبو المكارم (ت٥٨٥هـ)، وأوضح أنَّ السـيِّد أبا المكارم حمزة بن زهرة الحلبيّ مؤلِّف كتاب (غنية النزوع في الأصوليِّين)، وهو مـن مؤلَّفاته المهمَّة، وأنَّه قد ورد مدينة الحِلَّة بوقـتٍ مبكِّرٍ مقارنةً مع بني زهرة الحلبيِّين الخمسـة الذين أجازهم العلَّامـة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ) في مدينة الحِلَّة، بإجازة مبسـوطة (طويلـة)، وقد أورد العلَّامة المجلسيّ نصَّ الإجازة كاملًا في موسـوعة البحار، وذكر المؤلِّف تسـعة من مشـايخ ابن إدريس الحِـلِّيّ، ومنهم أبو المكارم الحلبـيّ، وترجم أيضًا لستَّة من تلامذة الشيخ ابن إدريس الحِلِّيّ المشهورين.

وكان الفصـل الثالـث هـو محطَّتـه التالية، وقـد عنونـه بـ(المحقِّق الحِـلِّيّ وازدهار الحركـة العلميَّة في القرن السـابع الهجـريّ)، ومن العنوان الذي وُسِـم به هذا الفصل، يمكن القول بأنَّ المؤلِّف لم تكن خياراته عشـوائيَّة، بل على اعتبارات الشهرة والعلميَّة، والتصـدِّي للزعامة الدينيَّة في المدرسـة الإماميَّة الاثني عشريَّـة، ومركزها مدينة الحِلَّة، إذ إنَّ المحقِّـق الحِـلِّيّ (ت٦٧٦هـ) مثَّل بحـقٍّ الزعامة الدينيَّة للمدرسـة الإماميَّة في هذا القرن.

واسـتهلَّ الفصل بحديثه عن انتعاش الحياة العلميَّة في المدينة، وقد أشـار إلى الوفد الحِـلِّيّ الذي قابل هولاكو المغوليّ، عندما زحف المغول صوب بغداد، وحصلوا منه على

الأمان لمدينة الحِلَّة والمدن المقدَّسة، وتشكَّل الوفد الذي توجَّه لمقابلة هولاكو من عدد من علماء المدينة البارزين المشهورين، وكان مسعاهم موفَّقًا بأن حقنوا دماء أهالي المدينة وأهالي المدن المقدَّسة في النجف وكربلاء.

أعطى المؤلِّف شهادته بالمحقِّق الحِلِّيّ وتزعُّمه المدرسة الإماميَّة، بالقول: «وكان المحقِّق الحِلِّيّ أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن الهذليّ (٦٠٢-٦٧٦هـ) على رأس المدرسة الحِلِّيَّة في القرن السابع الهجريّ»، لا أدري لماذا خصَّص المؤلِّف مدينة الحِلَّة دون غيرها من المدن التي كان غالبيَّة سكَّانها من معتنِقي المذهب الإماميّ، في الوقت الذي يمكن القول إنَّ المدرسة الإماميَّة آنذاك كان المحقِّق الحِلِّيّ هو صاحب الصدارة العلميَّة فيها دون منازع، وصاحب الكعب العالي في الفقه وأصوله، وليس ميلًا لمدينة الحِلَّة، بل بحسب رأيي المتواضع إنَّ المحقِّق الحِلِّيّ كان المرجع الأوَّل للمدرسة الإماميَّة بأجمعها في عصره.

تناول الكتاب في هذا الفصل مجموعة من الأسر الحِلِّيَّة التي برزت بشكلٍ واضحٍ، ويمثِّل كلّ أسرة عدد من العلماء البارزين، ولقد كان للحريَّة الفكريَّة التي تمتَّع بها علماء الإماميَّة أسهمٌ كبيرٌ في ظهور علماء تمكَّنوا من احتلال الصدارة على أقرانهم، ومن الأسر المهمَّة في مدينة الحِلَّة التي ذُكرت في الكتاب، هي (أسرة آل طاووس، وأسرة آل نما، وأسرة آل مُعيَّة، وبيت آل فخار، وبيت آل المنتوف، وبيت أسامة)، هذه الأسر والبيوتات العلميَّة الستَّة التي ذَكرها المؤلِّف لم تكن الوحيدة، بل ربَّما كانت هي الأشهر من بين الأسر العلميَّة في المدينة، مع قولنا إنَّ المؤلِّف أدرجها دون غيرها بوصفها اشتهرت في القرن المذكور (السابع الهجريّ)؛ لأنَّ هناك أسرًا علميَّة أخرى موجودة في المدينة، مثَّلها علماء من أبنائها، لكنَّ ظهورهم كان في القرنَين اللاحقَين، مثل (آل السيوريّ، وآل الطالقانيّ، وآل المطهَّر، وغيرهم).

استعرض المؤلِّف الأسر بحسب الترتيب الذي أشرنا إليه آنفًا، وافتتح الأسر بأسرة آل طاووس، التي ترجم لسبعة من علمائها البارزين، ولعلَّ أشهرهم السيِّد رضي الدين عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس، الذي ذكر في ترجمته، بأنَّ الفصل الرابع من الكتاب قد خصَّص فيه دراسة مستقلَّة عن هذه الاسرة، وأشار إلى عدد ممَّن تولَّى نقابة الطالبيِّين من علماء هذه الأسرة، مثل: مجد الدين محمَّد بن الحسن آل طاووس (ت٦٥٦هـ)، وقوام الدين أحمد بن الحسن آل طاووس (ت٧٠٤هـ)، وأشار إلى ولادات بعض أبناء هذه الأسرة في النجف أو كربلاء، إلَّا أنَّه أكَّد أصولهم الحِلِّيَّة، فالسيِّد رضي الدين عليّ بن رضي الدين عليّ آل طاووس ولِد في مدينة النجف، وغياث الدين عبد الكريم بن أحمد آل طاووس (ت٦٩٣هـ)، ولد في كربلاء، وهذا دلالة على تنقُّل هذه الأسرة إلى أكثر من مدينة غير الحِلَّة، كالنجف وكربلاء والكاظميَّة، كما أشار إلى ذلك المؤلِّف في تراجم أعلام الأسرة.

أمَّا أسرة آل نما، فقد ترجم إلى أعلامها وذكر عددًا منهم، مثل: نجيب الدين محمَّد ابن جعفر بن نما بن الرئيس أبي البقاء هبة الله محمَّد بن نما الحِلِّيّ، وسمَّى عددًا من أعلام هذه الأسرة، إلَّا أنَّه لم يستوفِ ذِكر جميع علماء الأسرة المعروفين، وربَّما زاد عددهم -بحسب علمي المتواضع- على عشرة علماء، وأسرة آل مُعيَّة ترجم لعدد منهم، ولعلَّ أبرزهم النسَّابة تاج الدين محمَّد بن القاسم بن مُعيَّة الحِلِّيّ (ت٧٧٦هـ)، وهو من بيت شرف، وتولَّى نقابة الطالبيِّين، وله كتب في النسب ذَكَرها المؤلِّف، واختصر اختصارًا كبيرًا للأسر الثلاث المذكورة التي أشرنا إليها.

ذكر في هذا الفصل المدرسة (الرنينيَّة)، هكذا سمَّاها، وهذا خطأ طباعيّ كما سنبيِّنه لاحقًا، ومع أنَّ هناك إشارات إلى أسماء أخرى لهذه المدرسة، فسمِّيت بـ(الزينبيَّة)، وكذلك أطلق عليها اسم (الزينيَّة)، وسمِّيت (الشرعيَّة)، ووردت باسم (الزعنيَّة)،

وكذلك وردت باسم (الزعيَّة)، وبحسب علمي المتواضع، لا يوجد دلالة أو مصداق للاسمين الأخيرَين، مقارنة مع الزينبيَّة، أو الزينيَّة، أو الشرعيَّة، وهناك مَن قال إنَّ التصحيف عند النسَّاخ ربَّما أدَّى إلى أن تُذكر هذه المدرسة بأكثر من اسم، وهي مدرسة واحدة، كما أنَّ عنوان الفصل أكَّد على القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، وهذه المدرسة أوَّل ظهور لها اقترن باسم الشيخ أحمد بن فهد الحِلِّيّ (ت٨٤١هـ)، وقد ذكر ذلك المؤلِّف، وهذا التاريخ يؤشِّر إلى القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ، لكن ربَّما هذه الإشارة للمدرسة جاءت نتيجة تعمير ابن نما الحِلِّيّ للغرف المجاورة لمقام صاحب الزمان في الحِلَّة، وهذا في القرن السابع الهجريّ، وأنَّ هذه المدرسة التي اقترن اسمها مع الشيخ أحمد بن فهد الحِلِّيّ هي نفسها المجاورة لمقام صاحب الزمان في الحِلَّة، ويحتَمل أنَّ الإشارَتَين لذات المكان، إذ لا توجد دلالة على التعدُّد بحسب علمي المتواضع، وإن حصل التعدُّد، فهذا يعني أنَّ هناك مدرستَين متجاورتَين تقعان بقرب مقام الغيبة (مقام صاحب الزمان)، وهذا مستبعَد، إذ لا ضرورة لوجود مدرستَين متجاورتَين تدرِّسان المنهج نفسه.

وبعد مراجعة المصدر الذي نهل منه المؤلِّف معلوماته، وهو كتاب (روضات الجنَّات في أحوال العلماء والسادات)، لمحمَّد باقر الخوانساريّ، وجدنا النصَّ الآتي: «أحمد بن فهد الحِلِّيّ.. أحد المدرِّسين في المدرسة الزينيَّة في الحِلَّة السيفيَّة»، وهذا دليل قطعيّ على أنَّ هناك خطأً طباعيًّا قد حصل، فجاءت باسم (الرنينيَّة)، وكان يقصد (الزينيَّة).

كان لمدينة الحِلَّة الباع الأطول في عدد العلماء الذين انتسبوا إليها، وتصدُّوا لمنصب النقابة، وعدَّد المؤلِّف ستّ أسر كان لها أثر في تولِّي علماء ينتمون إليها منصب (نقابة الطالبيِّين)، أو (نقابة الأشراف)، وربَّما لم يكن لعدد منهم منصب النقابة العامَّة،

بـل تـولَّى نقابـة الأشراف لمناطق معيَّنـة دون غيرهـا، وهـذه الأسر التي تتـولَّى النقابة المذكـورة لا بـدَّ أن تكون مـن الأسر العلويَّـة دون غيرها، ومن الأسر التـي ذُكِرت في الكتاب (أسرة آل الفقيه، وأسرة آل طباطبا، وأسرة آل مهنَّا، وأسرة آل العميديّ، وأسرة آل الآويّ، وأسرة آل الأعرجـيّ)، والمدقِّـق في هـذه الأسر يجد أنَّها تنتمـي إلى أكثر من مدينة، إذ تنقَّلت بالسكن بين المدن التي انتسبوا إليها، وربَّما هذا هو السبب الذي وقف وراء تسـمية علمائها بأكثر من مدينة، واشـتهروا بهذه التسـميات التـي تعدَّدت، فيُقال (الحِـلِّيّ، الغرويّ، الحائريّ..)، وترجم المؤلِّف تراجم مختصرة مركَّزة تعريفيَّة لعدد كبير من علماء المدينة، الذين عاشـوا في القرن السـابع الهجريّ، وكان عددهم ٣٠ عالـمًا ممَّن اختصرت تراجمهم التعريفيَّة في هذا الفصل.

وختـم الفصـل بالمحقِّـق الحِلِّيّ وكتابـه الذي يعدُّ الأشـهر من بـين مؤلَّفاته، وهو (شرائع الإسـلام)، وترجم لعشرة من مشايخه الذين تتلمذ عليهم، وأسهموا في تكوينه العلميّ، مركِّزًا على الرابطة العلميَّة بين المحقِّق والشـيخ الذي نهل منه العلم، ثمَّ تناول عـددًا من تلامذته البارزين، وكان أوَّلهم العلَّامـة الحِلِّيّ، الذي قال فيه المؤلِّف: «ربَّما أنَّ تلاميـذ المحقِّـق الحِلِّيّ، وفي مقدِّمتهم ابـن أخته العلَّامة الحِلِّيّ، قد حافظوا على مدرسـة شـيخهم المحقِّق الحِـلِّيّ في العطاء العلمـيّ»، وقد أوجز تراجم تلامـذة المحقِّق، مترجمًا لثلاثين تلميذًا منهم.

وافتتح مؤلَّفات المحقِّق الحِلِّيّ بكتاب (شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام)، وقـال المؤلِّـف في هذا الكتاب ما نصُّـه: «يعدُّ كتاب (شرائع الإسـلام) من أهمِّ الكتب الفقهيَّـة عنـد الإماميَّـة، وقد أكثـر الفقهاء من دراسـته وشرحـه والتعليـق عليه، فهو في واقعـه موسـوعة فقهيَّة كبيرة، برزت بعد تأليف الشـيخ أبي جعفر محمَّد بن الحسـن الطوسيّ (ت٤٦٠هـ)، كالمبسوط والنهاية والخلاف، وقد امتاز كتاب (شرائع الاسلام)

بأسلوب سلس، وعبارة مشرقة ودقَّة في تأدية المعنى، وإيجاز الألفاظ».

ثـمَّ ترجم لمؤلَّفاته الأخـرى، وهي (المعتـبر في شرح المختصر، معـارج الأصول، النافـع في مختصر الشرائع، نهـج الوصول إلى علم الأصول، المسـائل العزية..)، ويعدِّد ٢٢ مؤلَّفًا من نتاج المحقِّق الحِلِّيّ.

ونظرًا لأهميَّة أسرة آل طاووس في المدرسة الأماميَّة بعامَّة، والمدرسة الحِلِّيَّة خاصَّة، فـإنَّ هـذا الجانب من الأهميَّة لعلـماء الأسرة ونتاجهم العلميّ ومواقفهـم، ربَّما أدَّى إلى إفراد فصل في هذا الكتاب عن أسرة آل طاووس وموقعهم العلميّ من مدرسـة الحِلَّة، كان هذا محتوى الفصل الرابع من الكتاب الذي نحن بصدد عرضه، وقد أشـار المؤلِّف إلى أعـلام أسرة آل طاووس، مترجمًا لهم، مع ذِكر شـيوخ كلِّ واحـدٍ من أعلام الأسرة الذين ذُكِروا في هذا الفصل، وهم ثلاثة، قال فيهم المؤلِّف ما نصُّه: «وسـوف نشـير إلى النتاج العلميّ والفكريّ لثلاثة أعلام من أسرة آل طاووس، وهم يشـكِّلون نمط العلم والمجد في الأسرة»، وابتدأ بالسـيِّد أبي القاسـم رضيّ الدين عليّ بن موسى آل طاووس (ت٦٦٤هـ)، ولعلَّه بحسـب رأيي أبرز علماء هذه الأسرة، وأشـهرهم على الإطلاق؛ لهذا السبب أعطاه المؤلِّف أولويَّة على العَلَمين الآخرين، وذكر المؤلِّف شيوخه، وترجم لهـم، مركِّـزًا عل العلاقة بـين المترجَم له وشـيوخه العشرين الذين ذُكِـروا في الكتاب، ثـمَّ عرَّج على رحلاتـه العلميَّة، وترجم لأبـرز تلامذته الذين بلغ عـدد المترجم لهم في الكتاب واحدًا وثلاثين تلميذًا، أمَّا مؤلَّفاته فقد شغلت حيِّزًا مهمًّا في صحائف الكتاب، وقـد رتَّبها المؤلِّف بحسـب حـروف المعجم، وكان عـدد المذكور منهـا ٧٦ مؤلَّفًا، أمَّا العَلَـم الثـاني، فهو أبو الفضائل جمال الدين أحمد بن موسـى آل طاووس (ت٦٧٣هـ)، ترجم لأربعة من شـيوخه وتلميذين له فقط، ورتَّب كتبه السـبعة عشر بحسب حروف المعجم.

والعلم الثالث هو السيِّد غياث الدين عبد الكريم بن أحمد آل طاووس (ت٦٩٣هـ)، ترجم المؤلِّف لخمسة عشر شيخًا له، وثمانية تلاميذ، ورتَّب مؤلَّفاته الأربعة بحسب حروف المعجم، إلَّا أنَّه أسهب في الحديث عن كتابه الذي عُرِف به، وهو (فرحة الغريّ في تعيين مرقد الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في النجف)، إذ كتب الدكتور حسن الحكيم عن أهميَّة الكتاب، وركَّز بشكل كبير على الموارد التي أخذ منها السيِّد عبد الكريم بن طاووس، إذ أدرج قائمة من تلك المصادر عددها (٢٥ مصدرًا) من الكتب الخاصَّة والعامَّة، ثمَّ ختم الفصل بوفاته، وقال فيه: «حائريّ المولد، حِلِّيّ النشأة، بغداديّ التحصيل، كاظميّ الخاتمة.. نجفيّ المدفن».

كان أبرز علماء مدينة الحِلَّة في العصور الوسطى العلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٢٦هـ)، وفيه عنون الفصل الخامس، الموسوم بـ(العلَّامة الحِلِّيّ وبلوغ مدرسة الحِلَّة القمَّة العلميَّة). ترجم لشيوخ العلَّامة الحِلِّيّ البالغ عددهم ٢٥ علمًا من المشائخ البارزين، أمَّا تلامذة العلَّامة الحِلِّيّ فيبدو أنَّهم شغلوا المساحة الأكبر من حيث العدد، إذ ترجم لستِّين تلميذًا منهم، وبالتأكيد أعدادهم أكثر من هذا بكثير، أمَّا مؤلَّفاته، فقد ذكر الدكتور حسن الحكيم في جدول لمئة وستَّة عشر كتابًا، مرتَّبة بحسب الآتي (التفسير وعلوم القرآن ٨ كتب، الحديث الشريف وعلومه ٥ كتب، الفقه والفقه المقارن ٢٩ كتابًا، أصول الفقه ٧ كتب، علم الكلام وأصول الدين ٢٦ كتابًا، الفلسفة والمنطق والحكمة ٣١ كتابًا)، ترجم لهذه الكتب، وأفرد لإجازات العلَّامة الحِلِّيّ عنوانًا فرعيًّا في الفصل، وكان للمدرسة السيَّارة التي أسَّسها العلَّامة الحِلِّيّ أثرٌ كبيرٌ في نشر التشيُّع في بلاد المشرق الإسلاميّ، ولاسيما الدولة المغوليَّة التي تشيَّع الأيلخان الأكبر أوليجاتو، وسمَّى نفسه محمَّد، وتلقَّب بـ(خدابنده)، على إثر مناظرة جرت في مجلسه، نجح العلَّامة الحِلِّيّ بإثبات حجِّيَّته، ودحض حجَّة المناظرين له من علماء المذاهب الأخرى، وبهذا الانتصار العلميّ

تمكَّن من جذب السلطان المغوليّ إلى المذهب الإماميّ الاثني عشريّ، الذي عدَّه المذهب الرسميّ للدولة المغوليَّة أيَّام السلطان محمَّد خدابنده.

كان للشيخ ابن داوود الحِلِّيّ (ت٧٤٠هـ)، الذي يعدُّ أحد أعلام مدرسة الحِلَّة العلميَّة، كتابٌ ألَّفه في علم الرجال غاية في الأهميَّة، اتَّبع فيه منهجيَّة لم يسلكها أحد قبله، ترجم الدكتور حسن الحكيم لشيوخه، وهم سبعة شيوخ، وتلامذته الذين ترجم لهم، بلغ عددهم أربعة تلاميذ، وجدول المؤلَّف أعداد كتبه البالغ (٣١) كتابًا بحسب الفنِّ الذي اشترك فيه، وهي كالآتي: (الفقه والفقه المقارن ١٥ كتابًا، علم الكلام وأصول الدين ٥ كتب، الفلسفة والمنطق ٤ كتب، اللغة والأدب ٦ كتب، كتب الرجال واحد)، أخذ كتابه الرجاليّ النصيب الأوفر من حيث المساحة المكتوبة مقارنة مع كتبه الأخرى، إذ إنَّ المؤلِّف تناول كتاب الرجال لابن داوود بشيء من الإيضاح، اقتبس المؤلِّف قول ابن داوود الخاصِّ بانفراده بمنهجيَّة الكتاب، معتمدًا الرموز بالأحرف.

اشتمل الفصل السابع والأخير من الكتاب على ترجمة فخر المحقِّقين ابن العلَّامة الحِلِّيّ (ت٧٧١هـ)، وعنونه بـ(الشيخ فخر المحقِّقين وأفول مدرسة الحِلَّة)، تناول المؤلِّف الشيخ فخر المحقِّقين ابن العلَّامة الحِلِّيّ، وتتلمذه على أبيه، ومرافقته له في حياته، ورحلاته إلى مدن عدَّة، واشترك معه بنشاطه العلميّ في المدرسة السيَّارة أيَّام المغول، وعرَّج على نباهته العلميَّة المبكِّرة، إذ إنَّه حصل على درجة الاجتهاد في السنة العاشرة من عمره، كما أوضح ذلك، وبرز بين أقرانه بشكل واضح، وعرَّج على تلامذته، وترجم لاثنين وثلاثين منهم، ثمَّ تناول مؤلَّفاته التي رتَّبها بحسب حروف المعجم، وكان المؤلِّف قد ألمح إلى علَمَين مهمَّين، هما: الشيخ عبد الرحمن العتائقيّ الحِلِّيّ، والفاضل المقداد السيوريّ الحِلِّيّ، واللذان كان تردُّدهما بين الحِلَّة والنجف هو الغالب

على تحصيلها العلميّ، ولم تَفتهُ الإشـارة إلى الشـيخ أحمد بن فهد الحِلِّيّ، والحافظ رجب البرسيّ الحِلِّيّ (ت٨١٣هـ)، والشـيخ النسَّـابة عليّ بن عبد الحميد النيليّ (حيًّا ٨٠١هـ)، وابن المتوَّج البحرانيّ، الذي سكن الحِلَّة واستقرَّ فيها مدَّة طويلة من الزمن، وتردَّد بينها وبين كربلاء، وعدَّد مؤلَّفات الشـيخ أحمد بن فهد الحِلِّيّ، إذ ذكر أسـماء ٢٨ مؤلَّفًا منها، مع أنَّها أكثر من ذلك، وختم كتابه بإبراز أثر مدينة الحِلَّة وأثرها الفكريّ خلال المدَّة التي امتدَّت بين القرنَين السـادس ونهاية التاسـع الهجريَّين، مبرزًا أهمَّ السمات التي اتَّسمت بها، وما لها من أثر واضح في زعامة المدرسـة الإماميَّة الاثني عشريَّة مدَّة تزيد على ثلاثة قرون من الزمان.